النِّسبيَّةُ الثَّقافيَّة والنِّسبيَّة اللَّهجيَّة

طالب الدكتوراه عبدالرّحمن ضيباوي

جامعة تلمسان

ملخَّص:

يحاول المقال تحليل العلاقة بين ثنائيَّة اللَّهجة والثَّقافة والكشف عن النَّسبية لكليهما خلال التَّنوع الثَّقافيّ واللَّغويّ في المجتمع البشري والكشف عن أسباب التَّنوُّع في لهجات المجتمعات وعلاقة ذلك بثقافاتها وتقاليدها الاجتماعيَّة.

-الكلمات المفتاحيَّة : اللَّهجة ، الثَّقافة ، النّسبيَّة ، التَّباين اللَّهجي ، النِّسبية الثَّقافيَّة ، النِّسبيَّة اللُّغويَّة.

Absract

This article try to analysing the relationship between cultural relativity and linguistic relativity and giving the causes of linguistic defferents in human societies through the type of dialects and cultures.

-Key words : dialect .culture.relativity.dialectical defferents .cultural relativity. Linguistic relativity.

النِّسبيَّةُ الثَّقافيَّة والنِّسبيَّة اللَّهجيَّة

طالب الدكتوراه عبدالرّحمن ضيباوي

جامعة تلمسان

تَوطِئَة :

هُنَاك أكثر مِن 6000 لغة حول العالم يتواصل بها بنو الإنسانِ فيمَا بينهم ،عَلى كَثرَةِ الإثنِيَّات وَالأديان وَمُستويات التَّقدُّمِ و الحضارَة الَّتِي يَنتَمون إِلَيهَا،الكلّ يَستَطيع أن يُعَبِّرَ عن مَشَاعِرِهِ و أَفكارِهِ وَخبَراتِهِ مَتَى يَشَاءُ وَأينَ يَشَاء وَكَيفَ يَشَاءُ،بالِكتابَةِ أم التَّصويتِ أَم بالإشارَة في البيت أو الشَّارِعِ أو الجامِعةِ أَومَواقعِ التَّواصلِ الاجتِمَاعِيّ أوغَيرِ ذلكَ ، مَمَارَسَةُ اللُّغَةِ لَيسَت حِكْرًا عَلى أَحَد !هِي ملك البَشَرِ جِميعًا،إنْ لَمْ تَكُن هِيَ الفَارِقَ في كونِهم بَشَرًا ،لَكِن كَونُهَا مُمَارَسَةً مَا يَجعَلُهَا تَختَلِفُ من جَمَاعَةٍ لأُخرَى لظُروفٍ مكانِيَّةٍ وَزَمانِيَّةٍ وسيكولوجيَّةٍ و اجتماعيَّةٍ لاَتَتَوَقَّفُ أَبَدًا فَتَجِدُ في اللُّغَةِ الواحِدَة أَكثَر من لَهجَةٍ بَين بنِي الجِنس الوَاحِد ! مِن خِلالِ المَقالِ سَـــنُحَاوِلُ الحَدِيثَ عَن عَـــلاَقَةِ اللَّهجَةِ بالثَّقــافَةِ وَعَن نسبيتهما في خضمّ تنوُّع و تعدُّد لغات و ثقافات البشر ؟

1-اللَّهجَةُ وَ الثَّقَافَة :

اللَّهجةهِي مَجموعة من الصِّفَات اللُّغَويَّةوالقَواعِد ذَات الأَصل المشترك(dubois jean et al.2002.p.143) تنتَمِي إلى بِيئَة خاصَّة(شرقي ، 2013 ،ص.9.) بَينَ جَماعةٍ من الأفراد مُنعَزلةٍ عَن غَيرها(chambers and trudgel.1983.p.03)وِفقَ مَنظُومَةٍ نَسقيَّةٍ مُعيَّنةٍ،مِن خِلالِهاتَمتَلِكُ الجَمَاعَة جُغرافِيَا لِسانيَّة تُميِّزها عن أَنواع أخرَى من نَفسِ اللُّغة(trail &vegueras avila.2005.p.79) تلك الصِّفات تتوزَّع على الُّلَم اللّغوي حسب فروع علم اللَّغة و مجالاته المحدَّدة منهجيًّا

نحوًا syntaX صَرفا mophology صَوتا phonology دَلالة semantics وَتَداوُلا pragmatics، يُمكن ملاحظتها من خِلال عمليَّة التَّفاعل اليوميّ بين الأفراد عَبر جملَة الصِّيغ الكلاميَّة الَّتي ينتجونَها من أجلِ التَّعبير عن الحَاجيات و الانفِعَالات والمواقف المختلفة الَّتِي يَمُرّون بها،وَهُم يَفعلونَ ذلك طَبِيعيّا يَمنحُون اللُّغَةَ تَجسُّدا عَمَليًّا(الغذّامي ، 2006.ص.03.)شَكلاً خارجيًّا OUT FORM ،تَستحِيلُ فِيهِ من عَالمها التَّجريدي الدَّاخِلي INNERFORM إلى تَركيبَةٍ من الحَادثات occurrences(russel.1956.p.23) لَها وجُودهَا المَلموس فِي العَالم، بِما يسمح من المُعاينة التَّطبيقيَّة لَها، وَمن ذلك تَفكِيك بنيَتِهَا وَمَصدَرِهَا وَوَظِيفَتِهَا أَيضًا ،فالكلِمَةُ تركيبَةٌ مورفيميَّةٌ وَفونِيميَّة لَها أبعَادها الفيزيقيَّةو السِّيكولوجيَّةِ وَالرَّمزِيَّة ولكُلٍّ من تلكم الأَبعَاد dimensions دور بالغ في عَمليَّة إنتاجها وَوِجهة خاصَّة في عمليَّة التَّعامل مَعَها كونُها (الأبعاد) من جهةٍ أخرى انعكَاسَات لمرئيَّاتٍ معرفيَّةٍ أُخرى تُلاحِظُها العين الباحثة حَسبَ ما يَقتَضيهِ التَّقَصّي العلمِي إذ لاَشَكَّ أنَّ علم الأصوات يتعامل مع الظَّاهرة اللُّغَويّة غير تعامل علم النّفس و اللّسانيَّات وَالأنثربولوجيا وغيرها من دوائر المعرفة فالكلُّ حسب مجاله الإبستمِيّ و الميتودولوجيّ، ذلك ما يَجعَلُها حقًّا مَحلَّ تَجاذبُ المناهج و النَّظريَّات ويكشف بطريقة ما مَدى التَّركيب الَّذي تَمتازُ بِهِ فِي جملة الإحَالات الداخليَّة و الخارِجِيَّة المتداخِلَة في تكوينِها رَغم البساطة الَّتي يبدو عَليها إنتاج الكلام في الشَّارع و المَدرسة وَ الأسرة بدافع الانفعالِ أَو التَّواصلِ أو إحياء الشَّعائر و أداء الأهازيج أو غير ذلك من السِّياقاتِ .

الإنسان يَتَكلَّم في حَالاتِهِ الإراديَّة و اللَّاإراديَّة ، لاَينفَكُّ عن مُمارسَة لُغَتِهِ في شَتَّى نشاطاتِهِ و حَالاتِهِ مَا يؤَكِّدُ أنَّها جزء لاَ يَتَجزَّأُ مِن سلُوكِهِ بل لا يُمكن أن يُفْهَمَ الأخير إلاَّ من خلاَلِهَا،أَوضَحَ برونسلاف مَالِينُوفسكِي(1884–1942) حينَمَا دَرَسَ عَادات الصَّيد و الزِّراعَة لَدَى السُّكَّان الأصليّين"التّروبريَاند"أنَّ لُغَتَهُم"الكَرِيُوليَّة"هي مِفتَاحُ فَهم عاداتِهِم وَمُمَارَساتِهِم(كرامش 2010،ص.50)فمايَقُولونَه أثناء الطَّقسِ أو الشَّعيرَةِ أو العمل اليوميّ وَهُم يبذلون جهدا ليس بالهيّنِ يسردون موازاةً معه جملة من القَصَص المأثور و

يردّدون أهازيج الأسلاف وَأقوالـهم الـحكيمة وَبُطولاتهِم فـــي نوع من الاتِّصال الاسترجاعي وَالتَّحفيز الجماعِي للأَفراد قَصدَ البقاء على سيرة الأَوَّلين و حفاظًا منهم عَلى عاداتهم و تقاليدهِم وَالحرص في أدائِها عَلَى أكمل وَجهٍ لِتنعجن في تلك المشاهد الظَّاهرة اللُّغويّة بالـخبرات وَالمواقف !(بينكر ، 1420/2000ص.23.) ذلك الأمر يكشف مستوى من مستويات العلاقة بين الكلمة وَ السُّلوك الثَّقافي البَشَرِي وَإن كَانَ عَلى الأرجح وظِيفِيًّا في أَقلِّ تقريبٍ ،لكن الجَمع بينَ العلامة و السُّلوك سَيَكون مُختَزلاً لَو لَم يُستَحضَر وسيط الطَّبيـــعة خِلالَ ذلكَ فهي الَّتي تُشكِّل البـيئَة وَالأَشياء بِمجملها وَلحظةالمواجهة الأولَى بين الكائن البشريّ وَالتَّنوّع الهائل لدَى العالـم الخـــارجي فـــي أقرب افـتراض لأيّ عَقل يـتأمَّل،لاَبُدَّ أنَّـها كـــان مَـدعـــاة للانبـــهار و الدّهـشة وَالتَّساؤل وَلَم تَكُن بالأمر الهيّن بَتَاتًا ! نظريَّات تأصـيل نشأة اللُّغَـــة رغـــم تعَثُّرِهَا وَ إغلاق المشروع من طرف الـجمعية الباريسية حاولت الاقتراب من تلك اللَّحظةِ مع إلـحاح على التَّخمين في عمَلِيَّة التَّصويت الأولى رغم الغشاء الميثولوجي الَّذي أحاطَها أوَّل الأمر وربَّما قد وقَع في تفكيـر أولئكَ اللَّذين قدَّموها مشهد المواجهة بـــين الإنسان وَ العالمِ سواءًا من خلال نظريَّةِ المحاكاة أم الاصطلاح وَغيرها،لذلك لايزالَ الصَّوت الأوَّل الَّذي يُجهل تَمامًا ماهو وَإلى أيّ لَـهجَةٍ يَنْتَمِي وَمَا الدَّافِعُ الَّذي أثاره يُشَكِّلُ لاَمَحالة لَحظة الاتِّصال الأولَى وَخُطوةً أُولى نَحوَ تَقَرُّبِ الإنسان من الأَشياء وَالظَّواهر المحيطة بِهِ بغضّ النَّظرِ عن وازعِه فـي ذلكَ رَغم شِدَّة الحاجَةِ للمُسَبِّبِ الأوَّلِ فـــي نـشأة التَّفاعل بينهما ،الشُّـــعور بالـــخوف وَالـجوع وَالعطش و البرد وَما يشابهها من انفعالات فـي سيكولوجيَّةِ الكائن البشريّ تشكِّلُ بصيغَةٍ منطقيَّةٍ موازيةٍ أسئلَةً ضَروريَّة تحتاجُ لإيجاباتٍ ضروريّة تضمن استمرارَه في المنظومة البيئيَّةِ لكوكب الأرض وَبقَاءُ البشر للآن أفضل دليل على تمَكُّنِ السَّاكن الأوَّل(الهوموسابيان) من الإجابَة على كُلٍّ مِنها! ماذا ستكون تلك الإجابات غير الحاجيّات الضروريَّة لأيّ كائن: المَأوى ، الغِذاء وَالشَّراب وَ الحمـــاية أيـــضًا وَكلُّها لاَ غِنَى عـنها لدى الفرد و الجماعة ولِذلك كانَ يَنـبَغِي أن تحضى بالأولويّةِ دون الحاجات الأخرى من خلال البحث عنها و جـــمعهاوإنتاجها فيما بعد وتزيينها و خـــلافهِ و لايقلُّ شأنا عن ذلك ترميزها وَ نعتها بمسَمَّياتٍ وَ علاماتٍ يُعبَّر بـها عنها فَتُصبح

ضمن المجال التّفاعلي داخل الجماعة البشريَّةِ ، لكن أليس ذلك فعلاً أَوَّل سلُوك ثقافيٍّ ؟ !! فَمفهوم الثّقافة يفضي إلـــى المستوى الرَّمزي وَ إلـى مايتَّصِلُ بالمعنـــى وَيكون الاتِّفاق عليه أشدَّ عسرًا مِمَّا عداه(كوش.2007.ص.11.)،في افتراضٍ مُحايد هُو نتيجه للتَّفاعل بين عنصرين الإنسان وَ الطَّبـــيعَة دون إقصاء جُملة الدَّوافع في ذلكَ طبعا، ومـــحاولة اندماج وَتأقلم إلـــى حدٍّ ما وَبرؤية تـــأمُّليَّة إزاء بنية الأعراف وَالتّقاليد و الشَّعائر وَغيرها من وحدات مركَّب الثّقافة المعقَّد يتَّضحُ أنَّها تمثِّل تصوُّرات تمثيلية مجسَّدة في صيغ رمزية لما يكِنُّهُ الأفراد تجاه العالم وانطباعات تلتقي فيها المادَّة في أبـهى صُورها وَالرُّوح فـــي قداستها وَوَقارها لذلك طالما حملت أصوات البشر عقليَّاتهم وَأرواحهم بما فيها من خير وَشَرٍّ رغم كلِّ الاختلاف الَّذي يَزخَم به الوَاقع المجتمعيّ.

2-النِّسبيَّة اللَّهَجيَّة و النِّسبيَّة الثَّقافيَّة :النِّسبِيُّ(relatif) مَا لاَيكون مُقاسًا بِحدٍّ مُطلَقٍ،أوْمَا يُشَكِّلُ العلاقَة بين حدَّين(لالاند ، 2001،ص 1197) تُعارِض بشِدَّة مفهوم الشَّامل وَالمطلق وَاللَّانهائي،تحمل في كُنهِهَا حَقيقة الاختلاف وَالتَّبايُن وَالخُصوصيَّة وَتناقض مبدأ الموضوعيَّة الكاملة في المعرفة البشريَّة(جونز 2010،ص.188.)عندما تقترنُ بالمفاهيم الأخرى فالغاية منها تحديد المجال وَضبط الحدود بينها وَبين غيرها إبستميًّا و منهجيًّا ، اجتماعيًّا أو ثقافيًّا و غيـر ذلك كثير ناهيك عن كونها تشَكِّل ملجأً لأولئك اللَّذين يتقيَّدُون بالدِّقَّة وَيتوخَّون القراءات النَّاقدة ، فيذيّلون ما يقولون ب:"نسبيًّا "، الأمر يتعلَّق إذن بالتَّقييد والتَّحفّظِ وَالغربلة إزاء ما هو مشترك وَ غيـر مشترك بين الأشياء وَ الظَّواهر،الواقع البشريّ مـليء بصور التَّنوع الاجتماعيّ وَالثّقافـي و اللَّغويّ و الاقتصاديّ و السِّياسيّ الأمر الَّذي يجعل من البرهنة عليه في غاية التَّكلُّفِ و الابتذال و الإسفاف أيضاً ، لايعني ذلك البَتَّه إقصاء المشترك السِّيكولوجي و البيولوجي لكنَّ البرهنة على النِّسبيَّة في زَخم الاختلافات الظَّاهرة للعين المجرَّدة من ضرب التَّعامي عَمَّا هو مُعاشٌ وَمستهلك المعاينة لَدى بسطاء النَّاس،كيف بأهل المعرفة و البحث العلمي ،هناك نسبيَّة ثقافيَّة ظاهرة تُوازيها نسبيَّات عدَّة وليس من الضَّروري إثبات ما هو موجود بقدر البَحث عن العوامل الَّتي تقف وراءه وَمظاهر اختلافه من مكان لآخَرٍ.

فرانس بواز (1885–1942)،(كرامش ، المرجع نفسه ص.27.) من بين الإثنولوجيّين الأوائل الَّذين عنَـو بالتَّنَوُّع الثَّقافي وَالفوارق الثّقافيَّة بيـن البشر أَو ما يُسَمَّى أحيانا بالخُصُوصِيَّة الثَّقافيَّة أن تَمتاز جماعة عن جماعَةٍ بسماتٍ و نماذج وَطقوس و عاداتٍ تُجسِّد فَرادتَها في رؤية العالم ، بِما يمنحها نَمَط ثَقَافيّ(كوش المرجع نفسه.ص62.) لاَيَتَأَتَّى لغَيرِها وَإن كانت تشترك مع الآخر الثَّقافي في بعض السِّمات وَالملامحِ ، دون أن تزول الحدود بينهما مكانِيًّا(هولتكرانس ، 1972 ص.12.)الأَمـرالَّذي يَقـضي بالتَّنـوُّع فـي التَّمثُّلات وَالممـارسات الاجتماعيَّـة والاقـتصاديَّـة و السِّياسيَّة و الدِّينيَّةِ و اللُّغويَّةِ أيضًا ، وَكَأَنَّ الخصوصيَّة الثَّقافيَّة مركَّب مكوَّن من خصوصيَّات تتوزَّع على النِّظـام النَّسقي للجمـاعَةِ ، ولَكي لا يكون هـناك نـوع من الإطلاق على مفهوم النِّسبيَّة أو الخصوصيَّة ،يجدر الإشارة إلى أنَّ الاختلاف في بعض النَّماذج و المركّبات الثَّقافيَّة لاَ يعنِي التَّباين الكامل بين نسقين ثقافيَّين فَالطَّابع التَّبادلي بين الجماعات واردٌ في كلِّ حين وَما هو مشتركٌ يبقى كذلك دائمًا ،لكنَّ هجرة السِّمات الثَّقافيَّة وانتقالها من جماعَةٍ إلى جماعَةٍ بغضِّ النَّظر عن شروطه الكثيرة، يحتاج من بين ذلك لـوسيط مركزي بالغ الأهـميَّة بيـن الأفراد يضمن انـتـقال الرِّسالة بيـن المرسل و المرسل إليه كَما يـحافظُ على سلامتها قبل أن تَحلَّ في بيئتها الجديدة مايَجعل لزلي وايت(تشـيكـالوف و كوندراتشوف .2014.ص14.)يعتبر قدرة الإنسان على التَّعبير بالرُّموز عماد الثَّقافة وَمركزَها الَّذي يُشَكِّلُ بشدَّة طابعها التَّجريدي أو كما يعبِّرُ عنهُ هو بغير الجَسديّ ، الَّذِي يَمنحُها بالتَّوازي الجمع بين متناقضي الوصل وَالفَصلِ فِي هويَّةِ الأشياء وَعلاَقتها ببعضها (الجمل ، 2007، ص13.) وذلك من صفات البلاغة عند الفرس قديما(الجاحظ 2009،ص36.) فَمثلما تعزِلُ الكلمة متكلِّميها وَتحميهم من شأنها مدُّ جسور التَّواصل بينهم أيضًا وقَـد تمارس ذلـك العزل(دون سوان ،2011،ص273) داخـل المجـتمع الـواحد سَـواءًا من خلال الطَّبقات الاجتماعيَّة أو الجماعات الفرعيَّة داخل البِناء الاجتماعيّ العامّ ، فتتميز كلُّ واحدة بصفات لهجيَّة وَظواهر كلاميَّة قد تشارك بعضها مع الآخر اجتماعيًّا(التَّشارك الاجتماعي)، (نهر ، 1998،ص25.)وَثقافيًّا وَقد تختصُّ بها دونه فلهجة شباب الشَّوارع مثلا تـختلف عن لهجة النُّخبة المثَّقفة وَلـهجة الفلاَّحين تختلف عن

رجال الصِّناعات وَلهجة السُّوق عن لهجة البلاط وَغير ذلك مِمَّا هو ملموس في الواقع اليوميّ لدى النَّاس فالتَّبايُن في ممارسة اللُّغةِ لا ينحصر فقط بين المجتمعات وَإِنَّمَا ينشأ داخلها أيضًا بما فيهَا من مؤسَّسات وَهيئات وَفئات لكلٍّ منها خطابٌ ذو ملامحٍ تحكمه طبيعة وَظائفها وَ بِنياتِهَاوَمقاصدها أيضًا ، فالطَّبقات الاجتماعيَّة طبقات لغويَّة و لهجيَّة لَها خَصَائِصُها وَمَظاهِرُها في كلٍّ من المستوى النحويّ أو الدَّلاليّ أو الصَّرفيّ أو التَّداوليّ وَهُو ما ينطبق على التَّنوُّع اللَّهجي بين المجتمعات الَّذي لا يعدو ذلك والأجدر بالإشارة هو التَّوازي الدِّينامِي بين ما هو ثقافي و اجتماعي و لغوي بما يشابكُ بين اللُّغة وَ ما تسلكه الجماعة من نشاطٍ يوميّ ، فعند قبائل الهيرورو بأفريقيا مثلا كلمة "ريما" تستعمل للدَّلالة على البذار وَهي توافق صوتِيًّا كلمة "ليما" التي تستخدم للزِّراعةِ ككلٍّ في لغات بانتو أخرى والسَّبب في ذلك أنَّ الهيرورو ليسو أهل زراعة وإنَّما أهل ماشيَةٍ وَأبقار وَلغتهم لا تخلو من رائحتها ويعتبرون الزّراعة مهنةً لا تليق بالرَّجل(كاسيرر ، 2009 ص179.)ولو أنَّ التَّفصيل منقوص في أثر النَّشاط على الظَّاهرة اللُّغويَّة هنا وَكأنَّه يتكلَّم عن متقاربين صوتيَّين كما يصطلح علماء الصِّواتة في مقابل متقاربين ثقافيَّين ينزح للدَّلالَةِ دون بيان العلَّةِ في ذلك متجاوزًا البنية الصَّوتيَّة للكلمتين، وَما يعتريهما من تبدُّل صوتيٍّ دون الإشارة إلى العوامل البيئيَّة و الفيسيولوجية و النَّفسيَّة(هلال ، 1998، ص146.)الَّتي تحكمُهُ ،وفي العربية أمثالٌ عدَّة في تنوُّع الظَّواهر اللَّهجيَّة و تبايُنِها من قبيلة لأخرى كأَسدٍ وتميم وَ بكر وَربيعَة ربَّما سَتكُون أَوضَحَ من ذلِكَ ، جَاءَ عَن الأَصمَعِيَّ أَنَّهُ قَالَ: اختلفَ رَجُلٌ من قبيلَةِ مُضرٍ مع رجلٍ من قَبيلَةِ ربيعَة ، فقَالَ المُضَرِي : السَّقرُ وقالَ الرَّبيعيُّ : الصَّقرُ فَأقبَلَ رَجُلٌ من قضَاعَة فَأَخبَرَاهُ فقَالَ : لاَ أَقولُ كَمَا قَلتُمَا إنَّمَا هو الزَّقرُ ،فَاستَبَانَ أنَّ السِّينَ لِمُضَرٍ و الصّادَ لربيعَة و الزَّاي لقُضَاعَة(كريم ،1997،ص4.) وَكلٌّ يقرَأُ حسب عادتهِ ومَا نشَأَ عَليه سَماعًا ثمَّ مُحاكَاةً وَمُمَارَسَةً وَتبعًا لما تناقلُهُ الرُّواة وَالقُرَّاء من تنزيل القرآن على سَبعة أَحرُفٍ بِما يُيَسِّرُ على قبائل العرب قراءتَهُ تَأَتَّى للهذليّ أَن يقرأَ "عَتَّى حين" والأسدي يقرأ "تِعلمون" وَالتَّميميُّ يَهمزُ وَالقُرَشِيُّ لاَيَهمزُ(الدينوري ،2007، ص32.) على حسب الهَيئَة الَّتي يلفِظُون

عليها وَيستعـمِلونها لكنَّ الَّذي لاشَكَّ فـيــه أنَّ التَّــنــوُّع و الاختلاف فــي اللِّسان بينهم لم يأتِ من العدم فلابدَّ لَهُ من عوامل ما أدَّت إليهِ وَقد يكون أهمُّها النِّقاط التَّالية :

العامل الجغرافي والبيئي ، الظُّروف الاجتماعيَّة وَ الثَّقافيَّة ، الاتِّصال البشريّ .

أ–العامل الجغرافي و البيئي : طبِيعة المكان متباينة على امتداد جـغرافيا الأرض من اليابسة إلــى الماء صحاري وأدغال وجبال وَسهول وَ هضاب يتذبذب فيها المناخ على مواسم السَّنةوفق ما تُمليه الطَّبــيعة من ظواهر على معمّرِيها غير مبالــية بنوع الاستــجابة مــنهم ، سوى ما تــحمل الكائنات من خصائص بيولوجية في تكوينها تضمن لــها البقاء و التَّأقلم إزاء ذلك ، الإنسان خلال تلك التَّغيُّرات تخيَّر الأماكن الَّتــي تلائم مايملك من مؤهّــلات تضمن استمــراره بما فــي ذلك استغلال بنية المكان في النَّشاط اليوميّ و المعيشي له وَهنا كان تأثيرُهُ عليها مشروطا تبعًا بطبــيــعة الحال بصفــة النَّشاط شاقًّا أم دون الشَّاقِّ لكنَّ تلـك البـنــية التَّضاريــسيَّة بدورها كان لــها انعـكاس فــيزيولوجيّ و سيكولوجيّ و اجتماعيّ وثقافــيّ و لسانيّ على الجماعـة البشريَّة لذلـك تـجد الغلظة و الشِّدَّة فـي الــحركــة وَ اللِّسان لدى الجبليّين(مومن ، 2005،ص84.) خلاف قاطني السُّهول اللَّــذين يمــتازون بالرِّفق وَاللُّــيونة للتَّغيُّرات الصَّــوتيَّة النَّاتــجــة عن التَّــنفُّس القــويّ فــي الــهــضــاب وَ الجبال(مومن ، المرجع نفسه ص84.) إلـــى جانب ما يعتـريهم من حالات سيكولوجيَّة تظهــر فــي تصرفاتــهم فأهل التِّلول الباردة يوغلون فــي الإطراق و التَّخميــن للعواقب فيبالغون فــي الادِّخار لمحاصيل السَّنة (ابن خلدون ، المقدمة ،ص139.) وذلــك ما يعكس فيهم ارتبــاكا وقلقًا مستمرًّا لا يكادون يُخفونهُ فغالبًا ما أثَّرت ظروف الطَّبيعة القاسية على لغة وثقافة الــجماعة وَقد تمَيَّز بَدو العرب بغلظةٍ فــي الكلام وشدَّة وردت كثيرا في أشعار أسلافــهم فيما يُسَمَّى بوحشيَّة العربيَّة الأولى قـبل أن تنتخـب في قريش لتؤول إلى ما آلت إليه ولم يَعنِ ذلك البتَّه انقراض لغـــة البــادية وَإنَّما انتُــقِي الرَّقيق منها واللَّطيف على آذان العرب ونشأ مايسمَّى لغة الــحضر و لغة البدو وطالما شكَّلت الثَّانية مصدرا للأولى وَاحتكم

إليها النُّحاة وَاللُّغويُّون في كذا مسألة بل ودُوِّنت أيضا في الكتب وخصَّت لها المؤلَّفات من النَّوادر و المعاجم الكثيرة .

ب–الظُّروف الاجتماعيَّة و الثَّقافيَّة :

لاَ يتَّفق البشر على عادات و أعراف واحدة في تجمُّعاتهم الكثيرة ، بقدر التَّباين في اللَّون و المكان ترتسم اختلافات في أنظمة الاجتماع و الحياة والدِّين والفنِّ و السِّياسة واللُّغة ، قد يستعار في ذلك إلى حدٍّ قريب نَوع من "الذَّوق " وَلوأنَّ الكلمة أقرب إلى حقل الأدب منها إلى العلوم الاجتماعية و الإنسانيَّة فالجماعة البشريَّة تخيَّرت عاداتها و تقاليدها وفق خصوصيَّة المكان وَالزَّمان إلى جانب الدَّوافع السِّيكولوجيَّة الباطنيَّة خلال ذلكَ وكان لها مناظير خاصَّة إزاء العالم وَكانت اللُّغة أحد عدسات تلك المناظير في مقابل الجماعات الأخرى سواءً داخل المجتمع الواحد من طبقات وَ جماعات فرعيَّة أم بين المجتمعات ككلّ حيث نشأَ مفهوم العادات الكلاميَّة(أنيس ، ص12.) داخل اللَّغة الواحدة من خلال عمليَّة التَّفاعل الاجتماعي منذ السَّنوات الأولى لنشوء الفرد داخل أنظمة الجماعة ، فيتلقَّنها تلقائيًّا عبر الممارسة اليوميَّة و الاستعمال الطَّبيعي لها من أجل شتَّى أغراضهِ وَتتناقل عبر الأجيال من جيل إلى آخر لتصبح سِمةًلسانيَّة وقد لا ينتبه لها الفاعلون الاجتماعيُّون أثناء الاستعمال اليوميّ و يتكلَّمونها سليقَةً(أنيس المرجع نفسه ،ص30.) فتختصُّ بها تلك المجموعة التي ينتمون لها عن الأخريات وَربَّما تنعت بها فتصبحُ لاحِقَةً لهَا وَ عَلمَ شُهرَةٍكما حدث لدى القبائل العربيَّة ك:طمطمانيَّةِ حمير وَ عجعجةِ قُضَاعَة(أنيس، المرجع نفسه ،ص30.) وَكشكشة ربيعة وَغيرها كثير إذن يبدو في استعمال اللُّغة وَمُمارستها بناء للعادة الكلاميَّة إمَّا في التمظهرات الصَّوتيَّة و هي الأكثر شيوعا أومن خلال بقيَّة البنى اللُّغوية (النحويَّة و الصرفيّة و الدّلاليَّة).

ج–الاتِّصال البَشَريُّ :"Pure language is a poor language" ، نَقاء اللُّغة دليل على فقرها(عبدالرحيم ، 2011، ص7.) ، لا يعني البَتَّه الانعزال الاجتماعيّ و الثَّقافيّ و اللُّغويّ لدى الجماعة البشريَّة من حفظ الهويّة الإثنيَّة لها وَضمان استمراريَّة خصوصيَّتها بل و بقائها

أيضا كموجود مجتمعي ، فالتاريخ لم يُسجّل في محطَّة واحد من البدائيَّة الأولى إلى المجتمعات الحديثة من بقاء جماعة في منأى جغرافي دون اتّصال مع العوالم الاجتماعية المحيطة بها ، فذلك شبه مستحيل بالنِّسبة لبني الإنسان و منافي لطبائعهم في الاحتكاك تـجاذبًا وتنافرًا ، وقد عنى الاتَّجاه الانتشاري فـي الأنثروبولوجيا بانتـقال(السعيدي ،2013،ص68) السَّمات الثَّقافية و الاجتماعية و اللِّسانيَّة بين الشُّعوب وتثاقفها في كلِّ مناحي الحياة و أنساقها أيًّا كان دافع الاحتكـاك و مظهره سواءا بالتجارة أو التَّناسب أو الهجرة أو الحروب .....الخ . وفي ذلك

شكّلـت العلامة اللِّسانيَّة عماد الفعل التَّواصُـليّ بيـن الأفراد الفاعلين في عمليَّات الـحوار و التَّبادل فيما بينها وذلك مركز انتقالها وهجرتها عموما من جهة لأخرى كنموذج ثقافيٍّ ينتقل من وسط إلى وسط وفعل اجتماعيٍّ لا ينفكُّ عن التَّجربة و الخبرة لدى الفرد و الجماعة بما يمنحها طابع الحدثيَّة أو الفعليَّة فترادف le geste كما يصطلح إيكو سيميائيًّا ، لكن المهم في معرض الحديث انتقال السّمة اللَّهجية في ممارساتيَّة اللغة أثناء عمليَّة التَّواصل من خلال أوّلا مرور الرِّسالة من فرد لفرد وموازنات المتلقِّي لها بما هو نموذجيّ عنده أي بمقارنتها مع هويَّته اللُّغويَّة أو اللَّهجيَّة كما في مثال الأصمعي السَّابق من ناحية تمييزها وقبولها وإدراجها في الفعل التَّواصلي له أو رفضها وَاستعراض ما يراه المتلقِّي صوابًا أو مخالفًا بما يثبت هويّته كمتفاعل اجتماعيٍّ و ثقـافيٍّ و لغويٍّ بالأخصِّ ، فعمليّة التّفاعل اللُّغوي بين فردين هي في الحقيقة عملية تبادل وتشارك لكنَّها أيضًا عمليَّة تموقع كذلك يأخذ من خلالها الفاعلون أماكن محدَّدة خلال التَّبادل كممثِّلين لانتماءاتهم الاجتماعية و الثَّقافيَّة و اللُّغويَّة ذلك ما يحمل عليهم نوع من المسؤوليَّة في مقابل الآخر الَّذي يقع عليه الأمر نفسُهُ ، فالعمليَّة التَّلاهُجيَّة (التَّواصليَّة) هي عمليَّة متداخلة المستويات على ورقة التَّحليل وإن اعترتها البساطة في اليوميّ المعيش لا تنحصر فقط في تناقل السّمات الصّوتية كما هو شائع فقط و إنَّما تتجاوز ذلك إلى حمل النموذج الثَّقافي من إثنيَّة لإثنيَّة و استحالتها هي كذلك إلى سمة ثقافيَّة داخل الجماعة ولذلك كان قبول العلامة اللغوية من فرد أو جماعة من طرف جماعة أو فرد آخر عامل في دخولها المجال اللِّسانيّ (اللَّهجي) لَدى الجماعة المستوردة وَإدراجها شيئا فشيئا

ضمن الأفعال التَّواصليّة داخل فئات و مؤسَّسات الثَّقافة الجديدة لذلك كما نجد التَّباين نجد التَّقارب و الاشتراك بين الجماعات في كلِّ المناحي (لغة ، فنّ ، أطعمة و ألبسة و تقاليد و أغاني و رقصات ، مُعدَّات ....) الأمر لا يقتصر على جزء واحد من بنية الثقافة كما لا ينحصر بالنَّسبة لموضوع التَّباين اللَّهجيّ الاختلاف فقط ، فالتَّشابه و التَّداخل من ضمنيَّاتهِ أيضًا.

من خلال كلَّ ما سبق تتَّضح طبيعة التَّداخل بين ثنائيَّة اللهجة و الثَّقافة وَ طابع النّسبية لكلٍّ منهما في خضمِّ التَّنوع الاجتماعي البشري و تعقيد التَّركيبة الإثنية لبني الإنسان ملءَ الأعراف و التَّقاليد و الأنساق المتنوِّعة هنا وهناك.

المصادر و المراجع :

1-ابن خلدون ، المقدِّمة ، ج01، الطبعة الخاصة ، تحقيق عبدالسلام الشدادي ، خزانة ابن خلدون ، بالفنون و العلوم و الآداب.

2-ابن قتيبة ،2007 ، تأويل مشكل القُرآن ، ط :02 ، دار الكتب العلميَّة ، بيروت ، لبنان.

3-أبو عثمان الجاحظ ، 2009،البيان و التَّبيين ،ج1/2 ، ط:03،دار الكتب العلميّة ،بيروت ، لبنان.

4-أبرام دو سوان ،2011،كلمات العالم منظومة اللُّغات الكونيَّة ،ترجمة :صديق محمّد جوهر ، ط:01،هيئة أبو ظبي للثَّقافة و التُّراث الإمارات.

5-إبراهيم أنيس ، اللَّهجات العربيَّة ،د.ط، مطبعة الرِّسالة ،دار الفكر العربي ،الإسكندرية ، مصر.

6-أحمد مومن ،2005، اللّسانيَّات النَّشأة و التَّطوُّر ،ط:02،ديوان المطبوعات الجامعيَّة ،بن عكنون ، الجزائر .

7-أرنست كاسيرر ، 2009، اللغة و الأسطورة ، ترجمة : سعيد الغانمي ، د.ط، أبو ظبي للثَّقافة و التُّراث ، الإمارات المتحدة .

8-أندريه لالاند،2001 الموسوعة الفلسفية ،المجلَّد الثاني ، تعريب : خليل أحمد خليل ، ط:02،منشورات عويدات ،بيروت-باريس،لبنان.

9-إيكه هولتكرانس ،1972،معجم الإثنولوجيا و الفلكلور ، تَرجمة :محمَّد الجوهري ،حسن الشَّامِي ،ط:02،الهيئة العامَّة لقصور الثَّقافة ، مصر.

10-بَسَّام الجمل ،2007، من الرَّمز إلى الرَّمز الدِّيني ،ط:01، مطبعة التّسفير الفنّي بصفاقس ، تونس .

11-دينيس ألكساندروفيتش تشيكالوف ،فلاديمير ألكسندروفيتش كوندراشوف ،2014، تاريخ الثَّقافة العالميَّة ، ترجمة :عمادطحينة ط:01،هيئة أبوظبي للّسِّياحة و الثُّقافة أبوظبي، الإمارات المتَّحدة .

12-دينيس كوش،2007،مفهوم الثَّقافة في العلوم الاجتماعيَّة ،ترجمة :منير السعيداني دراسات الوحدة العربيةط:01 ،بيروت ،لبنان.

13-ستيفن بينكر ،1420/2000، الغريزة اللغويّة كيف يبدع العقل اللّغة ؟، ت:د.حمزة بن قبلان المزينـــي ،دار المريخ للنشر ، السَّعودية.

14-شرقي سنوسي مصطفى ،2013،تعابير الغضب اللّهجية عند شباب مدينتي تلمسان و وجدة في الـمجال الدّراسي و المنزل -دراسة اجتماعية لـــغوية- دار كنوز للإنتاج والنشر التوزيع ، الجزائر.

15-عبدالغفَّار حامد هلال ،1998/1414، اللهجات العربيَّة نشأةً وتطوُّرًا ،ط:02،كلّية اللغة العربية جامعة الأزهر ، عابدين/القاهرة ،مصر

16-عبدالله مُحمَّد الغَذَّامِي ، المرأة و اللُّغَة ، ط:03 ، المركز الثَّقافيُّ العربيُّ ، الدّار البيضاء، المغرب.

17-ف.عبدالرَّحيم ، 1432/2011،معجم الدَّخيل في اللُّغة العربيّة الحديثة و لهجاتها ، ط:01، دار القلم ،دمشق ، سوريا .

18-فيليب جونز ،2010،النَّظَريَّة الاجتماعيَّة و المُمارسة البَحثِيَّة ،ترجمة :ياسر محمَّد الخواجة ،ط:01، مصر العربيّة للنَّشر و التَّوزيع القاهرة، مصر .

19-كلير كرامش ،2010، اللُّغة و الثّقافة ، ت:د.أحمد الشّيمي ،ط:01، وزارة الثقافة و الفنون و التّراث ، قطر .

20-محمّد السّعيدي ،2013/1435. الأنثربولوجيا مفهومها فروعها واتّجاهاتها ،ط:01،دار الخلدونيّة ،القبة القديمة- الجزائر.

21-محمّد رياض كريم ،1997، المقتضب من لهجات العرب ،د.ط، جامعة الأزهر ، مصر .

22-هادي نهر ،1999، اللِّسانيَّات الاجتماعيَّة عند العرب ، ط:01،دار الأمل للنشر و التّوزيع ، الأردن .

23- Bertrand Russell.1956.an inquiry into meaning and truth.edition.bishop and sons limited edinburgh.great britain..

24-chambers and peter trudgill.1998.dialectology. second edition.combridge university.

25- llizabith luna traill , alejandra vegueras avila , gloria estela pinal .2005.dicctionaro basico de linguistica.universidad nacional autonoma de méxico ,mixico .

26- Jean dubois , mathée giacomo , louis guespin , christiane marcellesi , jean-baptiste marcellesi , jean pierre mével.2002 . dictionnaire de linguistique .paris.larousse-bordas/vuef.